بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللَّهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن اللَّه تعالى خلق الثقلين لحكمة عظيمة وهي تحقيق عبادته فقال- عزَّ من قائل-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ثم أرسل رسله مبينين للناس كيفية التعبُّد؛ فخصَّ هذه الأمةَ بأكرم رسول، وأعظم شريعة، وأشرف كتاب.

فكان من أعظم ما تميزت به شريعتنا عن الشرائع السابقة نعمة كمال الدِّين؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: لم يزل [اللَّه] يصرف نبيَّه محمدًا ﷺ وأصحابه في درجات الإسلام ومراتبه، درجة بعد درجة، ومرتبة بعد مرتبة، وحالًا بعد حال، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه[1].

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٤٢١).

وكان من عظمة هذا الدِّين أن جاءت تشريعاته مستغرقة لكل ما أحبَّه اللَّه ورضيه لعباده أن يتقربوا به إليه، من سائر الطاعات، وملبية رغبة العباد في التقرب إلى ربهم بشتى أنواع القُربات، بل ما من عضو من أعضاء البدن، أو حاسة من حواسه، إلا شرع اللَّه لها من العبادة ما تؤدي بها حق شكرها؛ فالقلب واللسان، والسمع والبصر، واليد والقدم لكل منها عبادة مشروعة[١]، هذا مع مراعاة التوازن في تأدية حقوق الخلق على مختلف الطبقات، وإعطاء النفس حظها من مباح الشهوات كما قال النبي ﷺ في وصيته لعبد اللَّه بن عمرو بن العاص: «**إنَّ لِجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإنَّ لزَورِك[٢] عليك حقًّا، وإنَّ لزوجك عليك حقًّا**»[٣].

وقال سلمان لأبي الدرداء: إنَّ لربك عليك حقًّا، وإنَّ لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا؛ فأعط كل ذي حق حقه. قال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[٤].

وقد اقتضت حكمة اللَّه العزيز الحكيم، أن لم يجعل تلك التشريعات كلها حتمًا واجبًا على كل فرد، بل كانت على مراتب ودرجات:

فمنها: ما هو واجب عيني على كل مسلم، لا يسعه تركه مع القدرة عليه.

ومنها: ما هو واجب كفائي على عموم الأمة، تبرأ الذمة بقيام بعضهم به.

ومنها: ما هو من نوافل العبادات لا إثم على الأمة بتركه، وإنما جعله اللَّه

---

(١) انظر لمزيد الاطلاع والبحث في هذا الموضوع «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم (١/ ١٠٩- ١٢٢) فقد بسط القول في أنواع العبادات وتعلقها بالقلب واللسان والجوارح، وأحكام العبودية الخمسة مع التمثيل والاستشهاد لكل نوع، بما لا مزيد عليه في التحقيق، فجزاه اللَّه خيرًا.

(٢) الزَّور: هو الزائر. وهو في الأصل مصدر وضع موضع الاسم، وقد يكون جمع زائر. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٣١٨).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، «الصحيح مع الفتح» (١٠/ ٥٣١) ح (٦١٣٤)، ومسلم في «صحيحه» (٢/ ٨١٣).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»، «الصحيح مع الفتح» (١٠/ ٥٣٤) ح (٦١٣٩).

ميدانًا عظيمًا لأصحاب العزائم في السَّبق إلى أعلى الدرجات.

كما أنَّ هذه العبادات بدرجاتها الثلاث، وما يندرج تحتها من أعمال متفاوتة في الفضل والجزاء عند اللَّه تفاوتًا عظيمًا، وتفاوتها في الفضل لا يرجع إلى معنًى واحد بل إلى اعتبارات كثيرة دلَّت عليها النصوص.

فهي متفاضلة باعتبار انقسامها إلى واجبات ومستحبات كما تقدَّم، وباعتبار أجناسها، وباعتبار الإخلاص والمتابعة فيها، وباعتبار المداومة عليها، وباعتبار تعدِّيها للخلق، وباعتبار زمانها ومكانها، وباعتبار ما يصحبها من الأحوال الخاصة، وباعتبار الاقتصاد والتيسير في تأديتها، وباعتبار العامل ومنزلته عند اللَّه إلى غير ذلك من أسباب التفاضل.

ونظرًا لأهمية مسألة التفاضل بين الأعمال وشدَّة الحاجة إلى فهمها الفهم الصحيح في التقرُّب إلى اللَّه بأفضل الطاعات، والمسابقة إلى أعلى الدرجات، رأيتُ أنه من الواجب ضرورة الكتابة في هذه المسألة بجمع شتاتها، وتقريب مسائلها، والخروج بقواعد مؤصلة بناءً على مدلولات النصوص، وفهم السلف لأفضل ما ينبغي أن تشتغل به الأمة على مختلف طبقاتها، وتنوع قدراتها، وتوجيه الراغبين في الخير لأفضل الأعمال في حقهم بناءً على مراعاة الفوارق الفردية، والمؤهلات النفسية، والظروف الزمانية والمكانية، وغير ذلك من الأحوال المؤثرة في تقرير هذه المسألة العظيمة الجليلة.

ويمكن إبراز أهمية دراسة هذا الموضوع في النقاط الآتية:

١- أنَّ هذا الموضوع كان محل العناية التامة من السلف حيث عظمت رغبتهم في التفقه فيه؛ فكثرت أسئلة الصحابة للنبي ﷺ عن أفضل العمل، كما عني به التابعون من بعدهم، والأئمة المحققون من أهل السنة فكثُر بحثهم فيه، والتنبيه على أصوله وقواعده مما خلف لنا مادة علمية غزيرة، وفوائد نافعة عظيمة في هذا الباب قد تخفى على بعض طلبة العلم، فضلًا عن عامة الناس مما يحتم بحثه

وتقريبه للناس.

٢- أنَّ المسلم المتفقه في هذا الباب يقطع في الزمن اليسير، وبجهد قليل في السَّبق إلى اللَّه ما يقطعه غيره في زمن كثير، وبجهد كبير، مما تعظم معه الرغبة لكل مسلم في التفقه فيه، خصوصًا في هذا الزمن الذي كثرت فيه الصوارف والأشغال، وضاقت فيه الأوقات عن الكثير من أعمال البرِّ وصالح الأعمال.

٣- الانحراف في هذا الباب عن السنة والاتباع من قِبَل طوائف من الأمة من أهل الجهل والابتداع بانشغالهم بالبدع عن السنن، وبالنوافل عن الواجبات، وبالمفضول عن الفاضل من العبادات مما يتحقق بالكتابة فيه معالجة هذه الانحرافات، والرجوع بالناس إلى السنَّة في منهج التعبُّد.

٤- أنَّ الشيطان قد لبَّس في هذا الباب على بعض العبَّاد، فزين لهم الأعمال المرجوحة، وشغلهم بها عما هو أرجح وأحب إلى اللَّه منها كما نبه على ذلك بعض الأئمة.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: فأول تلبيسه عليهم إيثارهم التعبُّد على العلم، والعلم أفضل من النوافل[١].

وقال أيضًا: وقد لبس إبليس على جماعة من المتعبدين فأكثروا من صلاة الليل، ومنهم من يسهره كله، ويفرح بقيام الليل، وصلاة الضحى، أكثر مما يفرح بأداء الفرائض، ثم يقع قبيل الفجر فتفوته الفريضة، أو يقوم فيتهيأ لها فتفوته الجماعة، أو يصبح كسلان فلا يقدر على الكسب لعائلته[٢].

وقال الإمام ابن القيم في سياق تعداده للعقبات «الست» التي صرف بها الشيطان العباد عن العبادة أو أفضلها: العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال

(١) «تلبيس إبليس» (ص١٩٠).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص٢٠٠).

المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا، ولأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله، وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب عن الأحبِّ، وبالمرضي عن الأرضى[1].

ففي الكتابة في هذا الموضوع تنبيه وتحذير للأمة من كيد الشيطان وتلبيسه كما هي طريقة أهل العلم المتقدمين والمتأخرين؛ فلهذه الأسباب ولغيرها آثرتُ الكتابة في هذا الموضوع، وتقريب مسائله، وجمع فوائده في بحث مختصر لطيف مؤصلٍ بالأدلة، مدعمٍ بأقوال الأئمة.

وقد سميته: «**تجريد الاتباع في بيان أسباب تفاضل الأعمال**».

وقد سرت في كتابته على خطة منهجية اشتملت على:

مقدِّمة، وتمهيد، واثني عشر فصلًا، وخاتمة.

وأما المقدِّمة: فكانت في أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

وأما التمهيد: ففي بيان عناية السلف بهذا الباب، وحرصهم على التفقه فيه.

وأما الفصول: فهي على النحو الآتي:

الفصل الأول: تفاضل الأعمال باعتبار جنسها.

الفصل الثاني: تفاضل الأعمال باعتبار انقسامها إلى واجبات ونوافل.

الفصل الثالث: تفاضل الأعمال باعتبار النيَّة وقوة الإخلاص.

الفصل الرابع: تفاضل الأعمال باعتبار حسن المتابعة فيها.

الفصل الخامس: تفاضل الأعمال باعتبار المداومة عليها.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٥). وانظر «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢١).

الفصل السادس: تفاضل الأعمال باعتبار تحققها على وجه الاقتصاد والتيسير.

الفصل السابع: تفاضل الأعمال باعتبار فضل العامل ومنزلته عند اللَّه.

الفصل الثامن: تفاضل الأعمال باعتبار الأوقات والأزمان.

الفصل التاسع: تفاضل الأعمال باعتبار الأمكنة والبقاع.

الفصل العاشر: تفاضل الأعمال باعتبار تعدِّيها للخلق.

الفصل الحادي عشر: تفاضل الأعمال باعتبار الأحوال المصاحبة لها.

الفصل الثاني عشر: الموازنة بين أسباب تفاضل الأعمال وما الذي يقدَّم منها عند التزاحم.

أما الخاتمة: فهي في النتائج التي توصل إليها الباحث.

هذا وأسأل اللَّه الكريم أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، صوابًا على النهج القويم، وأن يجعله قربة لي عنده مدخرة ليوم الدِّين، وأن يعم بنفعه المسلمين وأن يبارك فيه، وأن يشرح صدور قُرَّائه لفهمه، والعمل بما فيه من توجيهات وإرشادات صحيحة، وأن يغفر لي ما اعتراه من خطأ أو زلل، ويوفقني عاجلًا غير آجل لإصلاحه، إنَّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

ثم أتوجه برغبة صادقة إلى علمائنا ومشايخنا، وإخواني من طلاب العلم، ممن طالع كتابي هذا، أن يتحفني بنصحه وتوجيهه، ويرشدني لما يقف عليه من خطأ في فهم، أو تصحيف لنقل، أو استدراك لمسألة.

سائلًا اللَّه التوفيق للجميع لما فيه الخير والصلاح والسداد.

وصلى اللَّه وسلم وبارك على خير خلقه، وصفوة رسله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد
عناية السلف بتفاضل الأعمال، وحرصهم على التفقه فيه

لقد عظمت عناية السلف بموضوع التفاضل بين الأعمال، بدءًا بالصحابة -رضوان اللَّه عليهم-، ثم مَن جاء بعدهم من أئمة التابعين، ثم مَن سار على طريقهم من أئمة المسلمين المحققين في أبواب الاعتقاد، والسنة، والحديث، والفقه، على رأسهم الأئمة الأربعة الفقهاء، وتلاميذهم، وأتباعهم- رحمة اللَّه عليهم أجمعين-.

وفي الحقيقة إنه لا يمكن حصر كلامهم، وأقوالهم، وجهودهم في تقرير هذا الباب، وإنما أشير هنا إلى ما يدل على ذلك من خلال بعض الأوجه العامة الدالة على عناية السلف بهذا الموضوع، وهي:

١- كثرة أسئلة الصحابة ﷺ النبي ﷺ عن هذا الموضوع، على ما دلَّت على ذلك السنة من سؤال جمع من الصحابة النبي ﷺ قائلين: يا رسول اللَّه، دلّنا على أفضل العمل . . ؟ يا رسول اللَّه، أيّ العمل أفضل؟

ويخبر بعضهم: سُئل رسول اللَّه ﷺ: أي العمل أفضل؟[1]

ويقول آخر: سألت رسول اللَّه ﷺ: أي العمل أفضل؟ فكان كلما أجاب النبي ﷺ قال: ثم أي؟ ثم أي؟ كما هو ثابت من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ[2].

وهذا يدل على عظيم عناية الصحابة- رضوان اللَّه عليهم- بهذا الباب،

---

(١) انظر هذه الأحاديث (ص١٥) من هذا الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري «الصحيح مع الفتح» (٦/ ٣) ح (٢٧٨٢)، ومسلم (١/ ٨٩) ح (٨٥). وسيأتي بنصّه (ص١٥) من هذا الكتاب.

وطلبهم التفقه فيه، وحرصهم على العناية بضبطه وفهمه.

٢- عناية أئمة الحديث بهذا الموضوع بنقلهم الأحاديث المؤصلة له في مواطن كثيرة من مصنفاتهم، وإفرادها بتراجم خاصة تبرز أهمية هذا الموضوع. ففي تراجم البخاري في «صحيحه»: باب أي الإسلام أفضل[١]. وباب تفاضل أهل الإيمان بالأعمال[٢]، وباب أحب العمل إلى اللَّه أدومه[٣]. وباب العلم قبل القول والعمل[٤]. وباب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة[٥]. وباب أفضل الناس مؤمن مجاهد[٦].

وكذلك أورد مسلم في صحيحه كثيرًا من الأحاديث في التفاضل بين الأعمال، ترجم لها الإمام النووي بتراجم تشير إلى هذا الموضوع، ومن هذه التراجم: باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها . .[٧]. وباب تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل[٨]. وباب تفاضل أهل الإيمان فيه[٩]. وباب تقديم برِّ الوالدين على التطوع بالصلاة[١٠].

كما ذكر أبو داود كثيرًا من الأحاديث في الفضائل في سننه، منها: ما جاء في كتاب الجهاد، وقد ترجم لها بعدة تراجم كقوله: باب في ثواب الجهاد[١١]. وباب

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الإيمان، باب (٥).
(٢) المصدر نفسه، كتاب الإيمان، باب (١٥).
(٣) المصدر نفسه، كتاب الإيمان، باب (٣٣).
(٤) المصدر نفسه، كتاب العلم، باب (١٠).
(٥) المصدر نفسه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب (١).
(٦) المصدر نفسه، كتاب الجهاد والسير، باب (١).
(٧) «صحيح مسلم»، كتاب الإيمان، باب (١٢).
(٨) المصدر نفسه، كتاب الإيمان، باب (١٤).
(٩) المصدر نفسه، كتاب الإيمان، باب (٢١).
(١٠) المصدر نفسه، كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب (٢).
(١١) «سنن أبي داود» كتاب الجهاد، باب (٥).

فضل قتال الروم على غيرهم من الأمم[١]. وباب فضل الغزو في البحر[٢].

وعقد الترمذي في «سننه» كتبًا لأحاديث الفضائل منها: كتاب فضل الجهاد[٣]. وكتاب فضائل القرآن الكريم[٤].

والأمثلة على هذا من كتب الحديث كثيرة جدًّا يصعب حصرها، وإنما أشرتُ هنا إلى بعضها.

٣- اهتمام الأئمة المحققين بهذا الباب حيث أفرده بعضهم بالتصنيف، ومن الكتب المصنفة فيه:

- «فضائل الأعمال» لابن شاهين.
- «فضائل الأعمال» لابن قدامة.
- هذا غير ما أفرد في بعض الموضوعات الخاصة:
- كـ«فضائل القرآن» لأبي عبيد.
- و«فضائل القرآن» للنسائي.
- و«فضائل القرآن» لابن كثير.
- و«فضائل الأوقات» للبيهقي.
- و«لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» لابن رجب.

وهذا مما يدل على اهتمام أهل العلم بهذا الباب حيث أفردوه بهذه التصانيف، وغيرها مما لا يسع المقام ذكره.

(١) المصدر نفسه، كتاب الجهاد، باب (٨).
(٢) المصدر نفسه، كتاب الجهاد، باب (١٠).
(٣) «سنن الترمذي» (٤/ ١٦٤- ١٨٨).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٥٥- ١٨٤).

٤- عناية العلماء المحققين بتحقيق مسائل هذا الموضوع، والتوسع في بحثها وتقريرها، ومن أشهر من عُرف بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه اللَّه تعالى- في مواطن كثيرة من كتبه ورسائله، وقد اشتمل «مجموع الفتاوى» على كثير من الرسائل والمسائل المتعلقة بهذا الموضوع خصوصًا الرسائل المجموعة في المجلدات (السابع)، و (العاشر)، و(الحادي عشر). وكذلك ما جاء في (الفتاوى الكبرى)، وبخاصة (المجلد الثاني).

كما عُني بهذا الباب وتوسع فيه أيضًا الإمام الفذ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مواضع كثيرة من كتبه، ومن أكثرها طرقًا له كتاب «مدارج السالكين»، و«إغاثة اللَّهفان»، و«طريق الهجرتين».

كما طرق هذا الباب بحثًا وتحقيقًا حتى يكاد السِّمة البارزة لكتبه الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي، ومن أشهر كتبه في هذا: كتاب «لطائف المعارف»، و«جامع العلوم والحكم»، و«المحجة في سير الدلجة»، و«ورثة الأنبياء»، و«شرح حديث: ما ذئبان جائعان»، و«شرح حديث شداد بن أوس: إذا كنز الناس الذهب والفضة...»، و«الخشوع في الصلاة»، وغيرها من الرسائل المفيدة العظيمة النفع لهذا الإمام المحقق- عليه وعلى سائر علمائنا سوابغ الرحمة والغفران-.

وعلى كل حال فما ذكرته في هذه العجالة إنما هي إشارات وشذرات لبعض جهود الأئمة، وعنايتهم بهذا الباب العظيم، وإلا فجهودهم في تقريره كبيرة جدًّا يصعب الإحاطة بها في هذه الورقات، وهذا مما لا يخفى على الناظر في كتبهم، ورسائلهم -عليهم رحمة اللَّه-.

* * *